شال أحمر..

الكتابة بطعم حار

شال أحمر يحمل خطيئة، أحدث مجموعة قصصية لسعاد سليمان التى لا تبخل فى تقديم وجبة قصصية دسمة لقارئها تجاوز الستين قصة، ما بين متوسطة وقصيرة جدًا جدًا، أو ما عرف بالومضة، هكذا تقدم سعاد رابع مجموعاتها، بعد مجموعتها الأولى "هكذا ببساطة"، والمجموعة الثانية "الرقص"، والثالثة "شهوة الملايكة".

أتت الجائزة العالمية لقصة الومضة، جائزة متحف الكلمة 2015، تتويجًا لكتابتها للقصة القصيرة، وإخلاصها الدوءوب لهذا الفن.

القصة لدى سعاد سليمان عالم سردى مكثف، ومقطر، ورائق يخلو من الشوائب، عالم تنسكب فيه الروح شفافة، تطمح للتحليق فى فضاء الحرية، وكسر قيد الواقع المأزوم، واقع تعى سعاد سليمان كيف تكتبه وتراوغه، وتعريه، وتختصم منه، فى هذا الاطار تخلق شخوصها متمردة تارة، وحائرة تارة، وسلبية فى غالبية الأحيان، تحاول التخلص من عالمها إلى فضاءات الحلم والرؤى، فتداهمها الكوابيس النابشة فى الذاكرة، تطفو كوامن النفس وخفاياها، عوالم تبدو متعددة ومتشابكة ومعقدة، لكنها تصب فى نهر جار،

جارف لكل ما هو مستقر وثابت، تبدأ بقضايا الوطن أو الإنسان بعامة، وتعرج على الحب، والعشق، والخيانة، والأمل، والإحباط، والكره، والطهر، والثنائيات المتضادة: الشيطنة والملائكية، الحياة والموت، المحو والخلود.

لسعاد سليمان قدرة تحسد عليها فى انتقاء عناوين قصصها، المأخودة من لحم الحياة الحي، ممتزجة بشعرية لا تخفى، مثال ذلك، قلب موشوم على قدم، كرامات المحبة، ألعاب العازل الطبى، جدة منتهية الصلاحية، كراهية لا تفنى بالتقاعد، طاووس يغوص فى الرمال، مراوغة الحرمان، نوافذ ترتدى الحداد، وبالطبع شال أحمر يحمل خطيئة.

لا شيء جديدًا، الجديد فى زاوية الرؤية، والتقاط نبض المشاعر والأحاسيس، تخربش الرومانسية، فتسلبها الدعة والنعومة، ليبرز الأسى، وارتعاشات خلجات النفس المقهورة فى الغالب، تجاهد فى إخفاء هذه المشاعر الأسيانة، فتفلح حينًا، وتفشل أحيانًا أخرى.

الشخصية هنا تدور فى فراغ الحكاية، وكأنها غارقة تبحث عن من ينقذها عبر وضعية ذهنية، أو جسدية، أو نفسية، وهو ما يوفر لها روح الإدهاش التى تسرى لدى المتلقى.

فكرة الطقوسية تلعب لعبتها داخل القصص، تتأكد فى قصص "عمائم سوداء"، "شال أحمر يحمل خطيئة"، "أدعية القلب"، "مفارقة"، "مباركة سليمان"، وسواء كانت القصص قصيرة، أو

قصيرة جدًا، ومضة، كما ترى الأنثروبولوجية "مارى كروس"، فإن الإنسان "كائن طقوسى بامتياز" الإنسان فى غالبية القصص يبنى لنفسه طقسه التعبدى، ينداح فيه، يتقوقع داخله، يظل حبيسه حتى يصل الأمر حد الاستمراء.

ففى قصة "أدعية قلب" تردد الساردة عبارة واحدة أمام ضريح الأب، أشبه بالتوسل: ولد صالح يدعو له، ولد صالح يدعو له، لم تكل من ترديد العبارة النافية ظاهريًا لوجودها، والمنتقصة من كينونتها، فى المقابل تنقشع الظلمة كلما ابتهلت وتضرعت.

الساردة لا تهتم بذاتها الحية، فأحبال صوتها نالها التعب، تذكرنى القصة بالعديد الشعبى" مال الوليه نعشها مايل؟.. مالوش ولد بين الرجال شايل!

نحن أمام ميراث من الصعب إغفاله، فهو المتحكم فى مسار حياتنا.

فى قصة "عمائم سوداء" ترى الساردة أنها عروس؛ يلتف حولها رجال العائلة كلهم من دون نسائها، تنتهك إنسانيتها، ويتم اغتيال فرحتها بدم بارد، بينما يسبح خيال العروس منطلقًا إلى آفاق لا ترى، يرتبط فكر هؤلاء الرجال بالإرث المرتبط بالعذرية والشرف، وكأن هؤلاء تحولوا إلى وحوش برؤوس بشر وأجساد ديناصورات، في عالمين متقابلين متناقضين، ينتصر فى النهاية العالم المسالم شديد النقاء " يلقون بى من أعلى، يلتقطنى ملاك السحاب".

للقصة القصيرة جدًا شاعريتها، فقد يتعالق النص مع التناص، أو ما يوحى بالأيديولوجى الواقعى، ويشتغل الكاتب على تقنية التكثيف أو الحذف والإضمار والمسكوت عنه، إننا أمام بنية لا تكتمل دلالاتها إلا باشتغال المتلقى عليها، فهى تتشكل عبر ذائقته، ويضفى عليها من وعيه.

هذا التكثيف مرتبط – لا شك– بالإدراك الواعى بالوقعى الحياتى، وبدورة التحولات فى البنى التحتية والفوقية الاجتماعية، الأمر الذى يؤدى إلى تغير حتمى فى الوعى واللاوعى.

يتبدى هذا فى قصص سعاد سليمان، وبخاصة فى نهاية القصص التى تؤكد هذا التحول ذا الصبغة الجدلية، ومن ثم تجعل التجربة الإنسانية – بكل رحابتها – محمّلة بدلالات، تدهش المتلقى.

من هذه القصص"شعر مثقل بالحجارة".. تجابه رمز الأنوثة عقبات تعترض طريقه، فتفسده كرمز للأنوثة والجمال، كلما خطت المرأة خطوة فى طريقها، تشابكت خصلات شعرها فى أحجار الطريق، وتعثرت فى مسيرتها، ولا يبقى أمامها؛ إلّا أن تحمل أنوثتها بين يديها تعيد لها بهاءها ورونقها، فتصل ما انقطع، "من الطريق ذاته عادت بثبات تجمع خصلاتها، "تضفرها"، وتمضي مثقلة بشعر يحمل أطنانًا من الحجارة.

فكرة المقاومة فى بداية القصة إشارة دالة ولماحة، حينما تصف الساردة "تجر خلفها شعرًا بلون الكركم، يشتبك بكل حجر، إن صبغ

الشعر، بما يمثله من الاهتمام بالمظهر فقط، أوقعها فى التعثر، فكرة الوعى بالذات واللاوعى تلعب عليهما سعاد سليمان فى القصة، فحينما لا نهتم إلا بالقشور، ونهمل الجوهر ولا نعمل ملكة الفكر والتسلح بالفهم، يتم تجريف وعى المرأة الزائف بذاتها، وحينما تخلصت من ذلك "وصلت حد الصلع".

من كل ما هو ظاهرى تافه، لا يمت للجوهر الإنسانى، كان على المرأة وحدها أن تجمع هذه الحجارة التى تقف أمام طريقها، فإذا كان سيزيف قد حمل على ظهره صخرة، وهو يحاول الوصول لهدفه، فإن على المرأة أن تجمع ما علق بشعرها، وتمضى مثقلة بحمل أطنان من الحجارة، قصة مكونة من ثمانية أسطر تقدم معاناة المرأة منذ أن خلقت إلى زمننا الحالى، عبر إشارات رمزية ليست منغلقة على ذاتها، بل تعطى سعاد سليمان مفاتيح هذه المحمولات الدلالية لتعطيها شفافية، تعود فتنعكس بالضرورة على البناء السردى، ومن ثم على مقروئية القصة.

من المميزات التى تحسب لسعاد سليمان لغتها الحية المنحوتة من الواقع، مع إبراز جمالياتها، من حيث السهولة والليونة، هى تشبه مسحوق السكر الناعم الذى لا يمكن أن تخلو منه الحلوى، واللغة فى المجموعة تمثل رقائق معدنية، تشكلها الكاتبة كيفما تريد، وتتكئ اللغة على معجم من الكلمات تشكل الصور الجمالية، إضافة إلى الاستخدام الواعى لعلامات الترقيم، تنساب اللغة فى تناغم إيقاعى تجتمع فيه الأساليب الإخبارية والإنشائية والاستعارية،

مع تنوع فى استخدام مستويات من الفصحى واللغة الدارجة، المفصحة، بحيث يقف التعبير أو الكلمة الدارجة بجوار الفصيحة مشعًا بالدلالات، فتزداد اللغة بهاء، مثل "نضافة وعياقة"، "يختال فى جلابيته السكروته"، "ابن نكته".

اللغة فى مجموعة "شال أحمر يحمل خطيئة" ليست محايدة، بل هى لغة تنفتح على دلالات، لغة لا تنشغل بتقديم المعنى، بل ما وراء المعنى، مثل "من قال إن المعرفة لا تؤلم مثل الكذب"، "البحث عن الطريق والوجع" ، الرضا "رضا القلب والائتناس". تعلو اللغة لتصل إلى عتبات اللغة الصوفية فى شفافيتها وتحليقها.